

## كنا هنا

### يسرى العلكوك، فلسطين

أكتب الآن، ومن خلفي الحرب، وأمامي بحر غزة وزوارق المحتل. أعلم جيداً أنني لا أساوي أكثر من رصاصة عابرة من طائرة مسيرة، أو قذيفة طائشة من الزورق الذي يحرق بي، وأدرك أنّ خبري لن يتجاوز خمس كلمات ضمن إحصاء الموتى على هامش النشرات الإخبارية، ويومين من الحزن العابر، وأنّ العالم لن يدفن نفسه معي، ولن يحترق بفقدي سوى قلب عائلي. "هل هو الجنون؟ أم التهلكة؟" تحدّثني نفسي، أجيبها: بل هو المنطق الذي يحاولون أن ينفذوا لإنكاره أو التخلي عنه... فهذا البحر لي، والمقعد لي، والسماء لي، وإن لم يكن لي شيء سواي، فهذا يكفي! أما القهوة التي أمامي، فلا تشبهني، لا وجه لها، ولا رائحة ولا مذاق، نحن نخدع بها مزاجنا فقط، فأحرقنا الحَمْص وطحنناه واحتسيناه، حتى باتت لا تشبه من القهوة سوى مرارتها وسوادها الغليظ. زيف كبير لا حقيقة فيه سوى دمعتي الحزّية وشعوري المذبوح على صدر الكلمات التي تقرأها عزيزي الحيّ بعيداً في عالمك الوداع.

أكتب من مسافة صفر، من حدّ السكّين التي تمرّ كل يوم فوق أعناقنا، من قاع الموت وقلب الجوع، ومن تحت المأساة. أكتب من بين الركاب، على بُعد أمتار من حدودٍ وحياةٍ وعالمٍ كُنّا نظنه حراً، قبل أن تفضح غزة عبوديته. أكتب كوني أمّاً تطعم أطفالها من رماد المجاعة، وبوصفي صحفية أزحف بخطى مثقلة من جسد خائر لأسطر شعوراً أو أفرج عن كبت أو أوثق ميتة.. أكتب باعتباري زوجة شهيد تقضي الحرب وحيدة دون أنس وأمان! غير أن الحرب أرثني "ظرفي" خطأ... أحسدّ عليه! وحين أقول "ظرفي"، فإني لا أقصد سوى كوني زوجةً لشهيدٍ قُتل اغتيالاً، كان على "إسرائيل" أن تقتله كي يستمر وجودها، فقدّ قضّ مضاجعها مع والده العالم الصاروخي الذي ارتقى معه. شهيدٌ "بجسدٍ كامل"، على الرغم من أنه خنق في نفقٍ ضحّ فيه الغاز المنبعث من بطون القنابل المخترقة للتحصينات.

لقد حظيتُ بما لم تحظَ به كثيرات، بـ "وداع كامل"، حيث أمهلوني نصف ساعةٍ تمدّد خلالها أمامي، كأن الموت رَق له! همستُ في أذنه ألا يكثرث لشيء—فأنا كما كان يقول لي دائماً: "إنتِ سويرة وومن"—وقبلته، وتحسّستُ لحيته، وبكيتُ على وجنتيه، ورأيتُ بأمّ عيني كيف يُفرغ الله سكينته على القلب، وكيف يربط على عبده لحظة انكساره العظمى. ولقد كان له ما يليق بالشهداء الكبار، موكبٌ مداده أكثر من ألف رجل هرولوا بجثمانه الطاهر مع اثني عشر شهيداً قضوا معه، وصلاة، وخطبة، وجزارة تسابق فيها الناس على حمله... ثم قبرٌ معلوم، نُقش عليه اسمه، كان ملاذي كلما ضاق صدري بالشوق. ثم تأبين، ثم رثاء، ثم حكايات لا تزال تُروى عنه في المدينة كلّما لمع في سماء غزة صاروخٌ وارتفع، وترديدُ أهلها مع صغيره: "اللهم رحمة... اللهم قبول". غير أنه مات

شبعاناً... لم تعرف معدته جوعاً، ولا روحه مذلةً الحاجةً لإطعام أطفاله، عاش أسامة رفاهية الموت حقاً، وعشتُ أنا رفاهية الحزن، ورفاهية التأقلم مع فراغه بكل ما كلفني ذلك من قلب كامل، وعافية، وليالٍ طويلة.

واليوم... صرْتُ مرجعاً لسيدات الشهداء، أولئك القادِمات من عمق الفقد الطازج. يسألني عن "قيامتي الكبرى" كما يرينها، ولا يعرفن أنها قامت على قلبٍ دفع ثمنه كاملاً، وعلى عافيةٍ تنسَلْ مَيَّ على مهل، وعلى ليالٍ من بكاء صامت لم يسمعه إلا الذي خلق الحزن. لقد رأيتني واقفة... لكنَّ أحداً لم يَرَ كم مَرَّة سقطتُ وداهمني الوجع. ومع ذلك... حين أجالس زوجات المفقودين أو المطاردين، اللواتي يزنفن قلماً منذ عامين على رجالهن، أجدني أهمس في داخلي: "الحمد لله الذي رزقني يقين الفقد.. الحمد لله الذي أذهب عني القلق..."

لقد بدأتُ الحديث بصفتي زوجة شهيد، تلك التي عرفها الناس بمقولتها الأولى في لقاء لم يُخَطِّط له، حين أنطقني الله: "احفظوا أسماء أبنائي جيداً... يوماً ما، لن أسمح أن يكونوا أقلَّ من أبيهم وجدِّهم." وجدِّهم—لمن لا يعرف— هو البروفيسور جمال الزبدة، الذي ترك عروض العمل في وكالة "ناسا" بعد دراسته في أمريكا، وعاد إلى غزة ليصنع فيها الصواريخ مختومة بعبارة: "صُنِعَ في غزة". كانت تلك الكلمات صبغتي الأولى التي صُبِغْتُ بها، كأنها وصية ربانية أن يُصنَعوا كما صُنِعَ الذين سبقوهم: على عين الله، وتحت رعايته التي لا تغفل.

صبيحة السابع من تشرين الأول/أكتوبر، عبر المقاومون حدود الأراضي المحتلة، وقامت القيامة، وقيمتُ معها. بحثت عن حقيبتني— تلك التي اصطحبتها في خمس حروب سابقة— لأضيف فيها هذه المرة شيئاً من ذكرى زوجي الشهيد، الذي ارتقى في "سيف القدس" قبل عامين. سألتُ نفسي: "هل تكفي حقيبة واحدة لطَيِّ زوايا البيت العامر بذكراه؟ هل يمكن اختزال عقب الحوائط أو اثنتي عشرة سنة من الحب؟" تناولتُ ساعته الثمينة التي لم تكن تفارق يده، لتكون أثراً لأبنائه إن بقوا، ثم الأوراق الثبوتية، ثم ما خَفَّ حمله وغلا ثمنه، ثم قليلاً من الملابس لنقيم في بيت أبي—ضيوف حربٍ—لأنني لم أعد أقوى على حمل العبء وحدي.

هاتفنتي عدَّة مؤسسات ومنصَّات إخبارية: "تريد التعاون معك لتغطية العدوان." كانت العروض مغرية، شعرتُ أنني قد أعود.

لكن ما إن صَفَّر الخوف في السماء، حتى هرول أطفالنا الثلاثة إليّ، تمسَّك كل واحدٍ بي كأنني حبل نجاته الأخير. حينها أدركتُ أن دوري الأول ليس في الميدان، بل في حماية جبهتي الداخلية "أبنائي"! تخَلَّيت عن الفرص برضى تام، غير أنني لم أفلح في توزيع الأمان، كيف يمكن لدراعين منهكتين أن تحويا ثلاثة قلوب معجونة بالفقد؟

أوقدت "إسرائيل" نار الحرب، فصَبَّت حممها فوق رؤوس الأبرياء لتنتقم لصورتها الهشة، وأرادت أن تجعل غزة فراغاً خاوياً، كمشهدٍ ختامي في فيلم نهاية العالم، أمَرَّتنا بالنزوح، لكن وصية زوجي الشهيد—التي رأها صديقه في منام قبل الحرب بيومين، حين قال: "ما تسببهاش!"— لمعت في ذهني مع أول نداء إخلاء. فسَرَّتُ الرؤيا في

لحظة صمت داخلي: الآن... لا تتركوها! كتبتُ الوصية منشوراً على وسائل التواصل، يقرؤه الناس ويتمسكون به. أقمتُ حجةَ البقاء، لأن وصايا الشهداء لا تخطئ!

وبعد إخلاء الشمال، لم يبقَ في حيِّي إلا نحن وعائلة أخرى. كانت الوحدة هنا ليست أن تكون بلا أحد، بل أن تسأل نفسك في ليلٍ بلا كهرباء: "هل لو متُّ الليلة سيعلم أحد؟ هل سينجو من بيتي أحد؟ هل سيصل إلينا أحد؟" كنتُ كشيطة في مدينة مكسورة، يعود بكائي إليّ مجوّفاً. مدّت الحرب يدها الثقيلة إلى حارتنا. اقتربت الأليات لتقيم الحدّ على من اقترف كبيرة البقاء في المدينة. اضطررنا للنزوح العكسي داخل مدينتنا، فانتقلنا إلى شرق غزة.

في تشرين الثاني، حين كان خيط المعرفة الذي يربط الإنسان الغزي بالعالم مقطوعاً، وبينما نتكدّس 28 فرداً في غرفة نزوحٍ ضاقت حتى على أنفاسنا، وصلنا الخبر برسالة نصّية: ابنا خالتي ارتقيا في مجزرة استهدفت المصلين فجرأ في منطقة السنافور في حي التفاح. خالتي، التي قضت 30 عاماً من حياتها في الإمارات، ثم عادت قبل سنوات قليلة لتُعلّم أبناءها معنى الانتماء، وجدت نفسها تكلّي وحيدةً في غربةٍ داخل وطنها المحاصر. لم يتحدث أحدٌ عن المجزرة ولم يذكر بيان اسم المسجد المستهدف، ولا أسماء الستة عشر شهيداً الذين ارتقوا معهم. لم يحك أحد عن قلب خالتي المفجوع، ولا عن الفراغ الذي خلفه ولداها. لم تخرج القصّة إلى النور، كأن الفاجعة بلا لسان! وكان الوجد فائض عن الحاجة! وكان تحويل الناس إلى أرقام صار قدراً مكتوباً علينا!

هناك، تحت ثقل الصمت الجارح، أيقظت الفاجعة شيئاً كان نائماً داخلي، ثورةً اندلعت دفعةً واحدة. كنت أظنّ أن مسؤوليتي الكبرى تنحصر في حماية أطفالنا الثلاثة، أن أكون لهم السقف والكتف والحضن، لكن لحظة غياب أخبارنا كشفت لي عن مهمة أخرى لا تقل قداسة... كدتُ أُجنّ، كانت تلك اللحظة هي الحدّ الفاصل بين الاكتفاء بالنجاة أو الانحياز للحقيقة. شعرت أن الصمت خيانة لغزة، وأن الهروب خيانة أكبر، فاندفعت إلى الميدان بحثاً عن الصورة الكاملة، عن الحقيقة العارية، عن الأصوات التي لا يسمعها أحد. أشهرتُ هويتي الصحفية، وبدأت الركض خلف الحكايات التي تُمحي، وخلف الأرواح التي تُدفن بلا شاهد، وخلف أسماء لو لم نكتبها نحن لابتلعها الغياب. حاولت أن أضع أصابعي على نبض المدينة التي تتنفس بصعوبة، كأنها تحتضر من فرط الصمت، وأن أحرس أسماء الناس فلا تندثر، وأمنع موتهم الثاني... الموت في العتمة. حاولت أن أصرخ عنهم حتى لو لم تعد في السماء أذن تُصغي، أن نصنع جلبة—نعم جلبة—جلبة المحاصر الذي يحدث ضجيجاً مفاده، نحن هنا!

يبدو الهواء في مدينة الحرب ثقيلًا، ليس من الغبار وحده، بل من التذكارات العالقة فيه، صوت الأذان الخافت من مركز إيواء في نصف الحي المتبقي، ضحكة قُطعت قبل أن تكتمل، رائحة ملوّنة لمائدة كانت. كل شيء يختفي ويضيق، ثم لم يعد هناك معنى لعبارة "الحياة تستمر"، فالحياة في غزة لا تستمر... بل تصرّ على أن تكون—على الرغم من كل شيء—حاضرة على نحوٍ يرفض الانتهاء. في شوارع الحرب تسير الناس هائمةً على وجهها، شفاه جافة مشققة، شعر مشعث، دمع حارق، جلد محمّر، أقدام حافية، ملامح وجع جديد يختزل نكبة الزمان والمكان والإنسانية في آنٍ واحد.

تلال صغيرة متناثرة على نواصي الطرقات وجُزر الشوارع وفي الأراضي الفارغة اللامسورة، وأخرى على أبواب المدارس وفي مداخل الحدائق، وهي لشهداء كثير منهم بلا هوية، ومعظمهم بلا شواهد: منهم من اضطر أهله لدفنه في فناء منازلهم إذ لم يسمح الوضع الميداني بنقلهم إلى مقبرة شرعية، ومنهم من قَبَرَهُ المارة دفيناً حيث وجدوه، كي لا تلتهمه الكلاب الضالة. وهكذا يتبدد وجودهم كما يتبدد الغبار في الريح، كأنهم لم يكونوا سوى ومضات عابرة في ذاكرة العالم، غير أن كلَّ تلٍّ يحمل قصة غياب أبديٍّ، ويذكرنا بهشاشة وجودنا، وبأن الإنسان قد يصبح رقماً، وأن الحياة لا تقيم وزناً إلا لأولئك الذين يصرون على الكتابة عنها.

تدخل المخيم، يبدو الصمّ صارخاً في العيون. فيه أناس كانت لهم بيوتٌ وعمارات وغرفٌ مقسّمة، وحيطان يسندون ظهورهم عليها، وسرير لكل فرد، وكهرباء يشحنون بها هواتفهم ويشاهدون التلفاز. كانت النساء يصفقن شعورهنّ، لكنني أراهنّ على أن معظمهنّ اليوم نسينّ أن المرأة تحتاج مشطاً ومرآة، إلا أنّهنّ يربّين صغارهنّ في حضن القهر، بين خوفٍ لا يهدأ، وجوعٍ لا يشبع، ويقلن: "نحن نُلهي أطفالنا كي نصرّفهم عن التفكير بالجوع، نغرس فيهم حفظ القرآن كي يستأنسوا بحكاياتٍ مشابهة، نطعمهم الفتات، فقط، كي لا يموتوا جوعاً". أطفالهنّ كبروا من شدّة النقص، وشاخوا في أعمارهم الصغيرة، يمزّ الواحد منهم وعيناه لا تشبهان عينيّ طفلٍ، بل هما أشبه بكوّة مفتوحة على ما لا يُطاق.

هنا، الحكايات أثقل من قدرة القلم على الانحناء، وأضيق من أن تتسع لها جملة أو أن ينصفها تقرير، غير أنني أحاول تدوين التفاصيل، كأني أعدّ ذاكرة جماعية أخاف أن تذوب في فوضى الأيام، فلم يكن ما نعيشه استثنائياً، وهذا بالضبط ما كان مؤلماً،

فقد جُعنا في زمنٍ لم يلتفت العالم فيه لعروقنا الجافة، ولم يهتّمَ لدمع طفل بلا حليب، وكل ما يجيد فعله هو أن يحتمي الخبر، ويُحصي موتانا لتحديثات النشرات الإخبارية.

لم نكنّ للتحديثات فقط، بل باتَ البعض يُقسّم المصائب ويكتّيبها. ما الفائدة من أن تمنحها مسمّيات عدّة، كأن نسمّي النزوح انزياحاً أو نكبةً أو تشرداً مثلاً؟ هل يخفف هذا ثقلها على من ينغمس بها؟ أم يرضي من يشاهدها وهو يتنقل بين حصيلته اللغوية؟

وحين تكبر بقعة الدم، وتبتلع مزيداً من الأجساد الغضّة، هل نحتار في اختيار اللفظ، أنسمّيها مجزرة أو جريمة أو مذبحة أو إبادة؟ لا أدري إن كنتُ أبالغ لكنني صرت أكره التقسيمات منذ ذلك اليوم الذي شطرتنا "إسرائيل" فيه نصفين: أنا في غزة وشقيقاتي في جنوبها. وعلى الرغم من أن أبي كان يواسينا: "هذا أفضل كي لا تُباد كُنّا، كي يبقى منا أحد!" لكنني كنتُ أودّ أن نجابه الموت بجسد كامل لا بنصفه! ثم هل للموت لون واحد؟ أليس الصمت موتاً، والذلّ موتاً، والحصار موتاً، والجوع موتاً؟ والخذلان... أشدّ أنواع الموت فتكاً لأنه يأتي بوجه مألوف، دون رصاصة، دون صوت، ودون عذر حتى.

ومع ذلك، الناس هنا في غزة، يمارسون لعبة الهروب من قدر يتسابق نحوهم، يَحْتَمون بعنادهم كأنه خيط الأمل الوحيد بين البقاء والفناء. غير أن المصيبة هنا تشبه صفقة قاسية، تمنحك الوجد، لكنها تعطيك معنى جديداً للحياة لم تكن وصلت لأعلى مستوى فيه. وقد كان من معانيها "الرضى"، واكتمل لديّ المعنى حين رأيت شاباً من حارتنا، اسمه محمد، وهو الناجي الوحيد من عائلته... كان يسير بحذاء مهترئ وملابس فضفاضة، تذكرت كيف كانت أنظار فتيات الحارة تحوم حوله، فهو الشاب الوسيم الغني الأنيق، كان يضحك مع صديقه، على الرغم من أن جرحه ما زال طرياً، وقد اختفى كل شيء من حوله، أسرته جُلّها، بيته، أمواله، عقاراته... كل شيء. أعمنتُ في الوجه المجاور له فعرفته، إنه زوج صديقتي الشهيدة التي فقدها وأولاده الأربعة، إنهما يسيران وسط الدمار ويتبادلان الضحكات، فقد تقبّلا الابتلاء ويبدو قبولهما هيناً، فهمت في تلك اللحظة كيف يمكن لفكرة "أن تكون واحداً من جمعٍ من الفاقدين" ثم يهون عليك فقدك، فترضى... فقدتُ صديقتي خمسة عشر فرداً من عائلتها ومنزل طفولتها، ثم وجدتها تواسيني وتقول: "فدا الله فدا فلسطين، مش أعلى من أرواح الشباب اللي استشهدوا جواً." كما فقد جارنا برجاً بناه بشقّ الأنفس، وملكه وتجارته وبضاعته، ثم عقب: "الله بيعوّض." كل فلسطيني هنا على استعداد للفداء برضى وتسليم دون سخط أو جزع! وهنا تكمن غرابتنا!

في هذه الحرب، حاولت "إسرائيل" تجميد الوطن في هيئة رموز، أن تُصبح مثلاً الجامعة الإسلامية—التي كانت يوماً أكبر صرحٍ تعليمي في غزة—مجرد رمزٍ لحلمٍ قديمٍ بالمعرفة، وأن يُختزل المسجد العمري في كونه "أقدم مسجد"، لا في كونه بيتاً حياً للروح والناس. شارع البحر، والمنتزه الذي لم يُعد سوى صورة باهتة على جدران الذاكرة، ومطاعم غزة القديمة، وقصر الباشا، والشجاعة، وحيّ الرمال، كلها لا تُباد فقط، بل يُسلب منها زمنها. إنها محاولة دؤوبة لتجريد الفلسطيني من الآن، وأن يُدفع قسراً إلى العيش في الـ "كان يا ما كان"، وأن يتحوّل المكان إلى ماضٍ فقط، إلى شيءٍ نكيه، لا نعيش فيه. وهذا أخطر ما فعله الحرب، أن تتحوّل إلى كائنٍ يتجوّل في حطام ذاته!

في آب/ أغسطس 2025، وقت كتابتي هذا النص، لم يعد ينقصنا حدث كبير لنختنق، فقد كانت الحياة نفسها تضيق، وتضيق، حتى صرنا نشعر أننا على وشك أن نتدحرج عن حافة العالم. كنّا قد بلغنا قعر اليأس: مدينة بلا مدينة، فراغ صحراوي مسور بالخوف، يقول الناس فيه—كمن يتنبّه لنهايته: "هالمرة غير... هالمرة غير." وكانت جبالها قبالة أعينهم مثلاً كاملاً على سحق الحياة أمام النظر الحيّ: الروبوتات والمدركات تتقدّم كما لو أنها تُعيد تشكيل الجغرافيا خارج إرادة البشر، تهدم، وتجرف، وتبتلع أحياناً كاملة، دون أن تشبع.

وبينما كان رصاص قلبي يذوب فوق الورقة محاولةً لتثبيت ظلّ هذه النهاية، رنّ الهاتف، وأنا على المقعد ذاته أمام البحر، ظهر اسم أنس، كعادته اتصال اطمئنان، بلا موعد، وبلا حاجة، وبلا سبب أو مصلحة. قال ضاحكاً بصوته الواثق: "وين هالغيبه يا زعيمة الأرامل!" ضحكْتُ، وقلتُ له: لو غيرك قالها لفضحتة! ثم انخفض صوته قليلاً، كأنّ شيئاً تسلّل إلى رثته: "اسمعي يا إم جمال... بدّي أوصيك على بيان—زوجتي—إذا صار فيّ إي شي، ما تتركها! أنا بضرب فيك المثل بالجدعنة!" صمتنا معاً، وفي قعر هذا الصمت أدركتُ أن الحرب حين تغير نبرة

إنسان، تكون قد مسّت جوهره. وهروباً من ثقل اللحظة، قلتُ له: "إلك سنتين بتعيد نفس الجملة، إنت قطّ بسبع أرواح!" فأجابني بما لم يشبهه قطّ: "المرّة هادي غير!" حاولتُ أن أجزّه إلى الحياة بسؤال بسيط عن شيءٍ لطالما كان يشتبهه: "طيب... شو الأخبار؟ متى حناكل دجاج؟" أكملنا الدردشة حتى تمام الدقيقة السابعة والعشرين... ثم انقطع الحديث دون وداع، كأننا نُسلم أنفسنا لقدر قريب.

في تلك الليلة، وأنا فريسة للأرق، صرت أتأمل في حالنا: "كيف انقلبت ملامح حديثنا حتى أصبح كل اتصال يشبه آخر وصية، وكل نظرة تشبه النظرة الأخيرة، وكيف نتعمّد عناق من نراهم كأنه العناق الأخير؟" صرنا نعدّ احتمالات موتنا كما يعدّ العالم برامج عطلاته: "إذا متُّ وحدي... إذا متُّ مع أولادي... إذا انهار البيت... إذا لم نعر على جثة... أصبحت وصايانا تُرسل إلى أهلنا ممّن هم خارج حدود جغرافيا الحرب، وطلب السماح أصبح عادة يومية... ولم نعد نتحدث إلا عن الموت، آلياته، وطرائقه، وشكله، وما بعده... كأن الحرب جعلت من كلِّ واحدٍ فينا خبيراً في فنّ الفناء.

وبينما كنتُ غارقة في هذا التدبّر، كانت روح أنس تصعد إلى السماء، رسالة قصيرة من رقم أجهله: "أنس استشهد." انهرت... لم أبك حزناً... بل قهراً! لعنتُ هذا العالم—قبل أن ألعن "إسرائيل"—فقد كان أنس معلّقاً على حبل المشنقة والتهديد جهاراً نهاراً وعلى الملأ، ولكن ماذا فعل هذا العالم لأجله؟! كان أنس أخاً صغيراً لي حين حُوصرنا في الشمال، يرصد ما ينقصني، ويهرع إذا احتجت، ويسهّل ما استعصى. ولم يكن خافياً عليّ أن هذا اليوم قادم، لكن رؤيته محمولاً—وهو الذي حمل جثامين رفاقه واحداً واحداً—كان صفةً لروحي، وجرحاً لا أعرف أين يوضع في جسدي!

واحداً واحداً يا غرة... نخسر وجوهاً تُشبهك، في وجعك، وقهرك، ومرارتك، وعنادك. نتساقط كما تتساقط حجارة الدومينو، في عالم لا يجيد إلا البكاء على الميت بعد دفنه، ولا يقدّس الأبطال إلا وقد سار نعشهم أمامه! كانت تلك اللحظة التي أغلقت فيها الحرب بابها على الصحفيين كما أغلقت على المدينة كلها—كأنها تقول: "سيموت الصوت كما مات الجسد."

اعتزلتُ العمل مدّة، لا أطيق العمل ولا الكتابة. أدركتُ أن روجي أغلى من صحوة العالم، غير أنني كنت أنتقل بين بيوت عزاء الزملاء واحداً تلو الآخر. وحين استعدت أنفاسي بعد شهر، كان أول عودتي لأكتب عن أنس، عن رثائه، عن وجه الإنسان الذي نعرفه، وعن المعنى الذي يتركه غياب شخص واحد أغرق مدينة بأكملها في بحور الوجوم والحزن! ثمّ إنني اليوم أعود لأكمل نصّي، وقد هدّني الفقدُ حتى آخر عصب في الروح، أجلس في المكان ذاته، وأتذكّر أن آخر مكالمة لأنس كانت هنا حين كان حيّاً، وأن آخر ضحكة له ذابت في هذا الهواء.

أكتب... لأنني إن لم أكتب سأخنتق. أكتب كي لا يموت الكلام في حنجرتي كما مات زملائي، كي لا تُطفئ الذاكرة نفسها هرباً من هول ما رأت، كي لا يبتلعني هذا الصمت الذي يلتهم المدن والبشر والقصاص. أكتب لأفضح الألم

فأنا شاهدة عليه—و "إسرائيل" تمعن في قتل الشهود—أحوّله نصّاً يقف رغم هشاشته، شاهداً على زمنٍ حاول أن يمحوها، ويمحو المدينة، ويمحو حتى قدرة القلب على التصديق أن ثمة حياة كانت هنا يوماً. أكتب حتى لا نصير هامشاً باهتاً في سردية حرب تتورّم في موسوعات العالم البغيض. أكتب كي لا تُختصر أرواحنا في الأرقام، ولا يتحوّل موتنا إلى جملة اعتراضية في تقريرٍ دوليٍّ بارد. فلا شيء ينتهي هنا حقاً... ولا أحد يعرف السطر الأخير، ولن يجرؤ أحدٌ أصلاً على كتابته سوانا... نحن فقط، من نمّد أيدينا إلى الورقة ونحاول، بما تبقى فينا، أن نترك أثراً ينجو من الخراب، أثراً بسيطاً... لكنه ينطق: "كُنّا هنا... ولم نصمت... ولم نعبر الزمن خفافاً!"